



قالوا قديماً: "بلغ السيل الذئب"، وقالوا أيضاً: "القشة التي قصمت ظهر البعير"، متلان عريان قدیمان أتذکرها وأنا أنظر بترقب وتأمل للأحداث المتلاحقة التي عصفت ببعض شعوبنا العربية، والتي سالت لأجلها الدماء حيث كانت الأمور تسير عبر عقود من الزمن في طريق يقودها إلى الانفجار، ولم يكن هذا الانفجار يستدعي إلا حوادث تكاد لا تختلف عن كونها حوادث يومية تكرر في هذه الشعوب كحرق محمد البوعزيزي نفسه بسبب الاضطهاد والفقر، وقتل خالد سعيد على يد أجهزة الأمن المصرية، وغيرها من الأحداث في شعوب أخرى، والتي لم تكن إلا حصيلة استبداد دام فيها عقوداً من الزمن حتى قامت هذه الشعوب؛ لتطلق صافرة الإنذار محذرة من الاستمرار في واقع أدركت أنَّ استمراره يعني زوالها، فوقفت لتعيد كتابة تاريخها، وتصوغ واقع ابنائها ومستقبلهم من جديد، مستقبلاً خالياً من الظلم والفساد والاستبداد.

هذه المعاني التي سيطرت على حياتها عقوداً من الزمن، ولكن ربما يبدو غريباً أن أقول: إنَّ المسؤول عن انتشار الظلم والفساد والاستبداد في هذه الشعوب ليس الظالم والفاشي والمستبد فحسب، بل من يقع عليهم فعل الظلم والفساد والاستبداد أيضاً لسبب يسير، وهو أنَّهم تخلوا منذ البداية عن دورهم في محاربة هذه الشرور والقضاء عليها، فاستسلموا لواقعهم؛ وما ذلك إلا بسبب جملة عوامل أقدم لكم في هذا المقال اثنين منها على أمل أن يكونا نواة لوعي فكري واجتماعي يحول بيننا وبين الرُّكون إليهما في قادِم أيامنا، وهذا العاملان هما:

1- فَهُمْ مجذزاً بعيداً عن رُوح الشريعة ومقاصدها شاعَ حولَ بعض المفاهيم الأساسية في ديننا، وأدى إلى ما وصلنا إليه اليوم من الاستسلام والخُنوع والسُّكوت عن الظلم والرُّكون إلى الواقع المعيش، ومن هذه المفاهيم: أ. مفهوم الدُّنيا وحققتها وضرورة الزُّهد فيها وعدم الحِرص عليها؛ لأنَّ فيها عابرو سبيل، وهذا بلا شك مبدأ من مبادئ شريعتنا السَّمحاء نصَّتْ عليه العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، كقوله - تعالى - : {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَاصْبَحَ هَشِيمَا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف: 45].

وقوله - تعالى - : {وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَزَّيْتُمْ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [القصص: 60].

وقوله أيضًا: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهُيَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [القصص: 64]، وغيرها من الآيات.

ومن الأحاديث الشريفة قوله - صلى الله عليه وسلم - : عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهم - أنه قال: أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ببعض جسدي فقال: ((يا عبد الله، كُن في الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور)); رواه أحمد والبخاري.

وقوله - صلى الله عليه وسلم - : ((ما أنا والدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها)); رواه أحمد. وغيرها أيضًا من الأحاديث التي كان ولا يزال الكثير من الدعاة والوعاظ يقدّمونها ويعزّزونها في النفوس، ويركّزون عليها في خطّبهم وأحاديثهم، ولكن على نحوٍ مجتزأ وفاسد، يجعل الناس يزهدون في الدنيا ويخلّون فيها عن أي دور فاعل، أو عمل إيجابي.

فليتحمل المشاق التي تقتضيها مواجهة الظلم ومحاربة الفساد طالما أتنا في هذه الدنيا عابرو سبيل؟! وما شأن عابري السبيل إلا المرور والمغادرة، وأية نية في الإقامة والاستقرار ستبوء بالخسارة والندامة؛ لأننا زائلون راحلون عن هذه الدنيا لا محالة، إذاً ما علينا في هذه الدنيا إلا أن نزرع للآخرة، وأي زرع أجدى من حسنات القرآن وعد ركعات الصلاة وأيام الصيام وعد الحجات والعمارات!! هذا المعنى الذي ترسّخ في نفوس المسلمين على مدى عقود من الزمن، وأيّدته وسدّدته العديد من التيارات الصوفية التي كان لها دور كبير في عزل الإنسان عن دوره الفاعل في الحياة، وقد تم تقديم هذا المعنى على نحو مقصود أحياناً ممّن يسمون بعلماء السلاطين، حتى لا تستغرب أن تكون خطبة الجمعة الثانية بعد اندلاع الثورة في إحدى الدول العربية، ومن قبل عالمة هذا البلد تحدثت عن كون المسلم عابر سبيل، وما عليه إلا أن يعيش للعبادة (الشعائرية) ثم يمضي!

على هذا النحو قام الكثير من الدعاة بتقديم هذه الفكرة بشكلٍ مجتزأ بعيد عن الغاية الكبرى التي من أجلها خلق الإنسان، الغاية المتمثلة في عمارة الأرض وإقامة خلافة الله - تعالى - فيها، هذه الخلافة التي تدفع المسلم إلى كل معاني الإيجابية والعمل ليعمّر الأرض، ويُقيّم الحق والعدل والحرية فيها، الحرية التي تجعل الإنسان عبداً لله وحده، وليس عبداً لبشر ولا لحجر، وليس عبداً لملك ولا لزعيم ولا لنظام يسكن أمامه عن الباطل ويخشأه دون الله، فلا يقوم لتغيير منكراً ولا لإقامة حقٍّ متذرعاً بكون الدنيا دارٌ لها وأنه فيها كعابر سبيل!

عمارة تجعل الحياة تزهو وتزدهر، ولكن دون أن يتعلّق بها قلبه، أو تميل إليها نفسه، فيركن إليها، وينشغل بمباهجها وزينتها وزخارفها؛ لأنّه يضع نصب عينيه أن هذه الحياة الدنيا لها ولعّب، وأن الدار الآخرة هي الأبقى، وأنه في هذه الدنيا عابر سبيل، فيجعل الدنيا تحت قدميه ويميل بقلبه نحو ربه وحالقه، متمثلاً معنى عبادة الله في كل سلوكه وأفعاله وأخلاقه، وليس في عدد ما قرأ من أجزاء القرآن، وما صلّى من ركعات، وما صام من أيام، وما أدى من حجٍّ وعمره فقط، بل يتقرّب إلى الله بكلٍّ هذه المناسك مركزاً على ما تقتضيه هذه المناسك من قيمة كبرى، وهي أنه عبد لله يُقيم خلافة الله في الأرض متأسياً بسيد الخلق، ورسول الحق - عليه الصلاة والسلام - الذي كان في الدنيا عابر سبيل، ولكنّه في الوقت نفسه فتح البلاد وقلوب العباد، وجاهد في الله حقّ جهاده حتى صار الدين الذي بدأ به وبصاحبه وزوجته، ومولاه وابن عمّه، صار أمّةً تمتد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً.

ب. المفهوم الثاني الذي تم اجتزاؤه وفصله عما أنزل من أجله هو: معنى تغيير ما في النفس ابتعاءً تغيير الواقع من حولنا المتمثّل في قوله - تعالى - : {إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّنُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد: 11].

حيث تم اجتزاؤه معنى التغيير على تركيبة النفس من خلال العبادات والطاعات ضمناً سعي طويل الأمد، على أن ذلك - وحده - كفيل بتغيير الواقع؛ لأن الله - تعالى - تكفل لمن يغيرون أنفسهم بإلزامها بالطاعات والعبادات أن يُغيّر لهم

وأعهم، ويَنْحَمِمُ وَاقْعًا أَفْضَلَ، ذَا عِيشَةً أَهْنَأَ وَمَعِيشَةً أَسْعَدَ، حَتَّى إِنَّ أَيَّ حَدِيثٍ عَنْ وَاقْعٍ سَيِّئٍ يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ فَسَادٍ أَوْ اسْبَدَادٍ أَوْ ظُلْمًا، يَكُونُ عَلَاجُهُ فِي نَظَرِهِمْ هُوَ الْمَزِيدُ، وَالْمَزِيدُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْقُرْآنِ وَالْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَيُّ دُورٍ فَاعِلٍ فِي إِحْدَاثِ هَذَا الْوَاقِعِ أَوْ تَحْقِيقِهِ، كَمَا تَمَّ اجْتِزَاءُ مِنْ التَّغْيِيرِ لِيَقْتَصِرَ عَلَى تَغْيِيرِ كُلِّ فَرْدٍ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ وَحْدَهُ مَحْطُ التَّغْيِيرِ وَالْهَدْفُ مِنَ التَّغْيِيرِ، وَهُنَا أَوْدُ الْوَقْوفَ عَنِ النَّقْطَتَيْنِ هَامِتَيْنِ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

الْأُولَى: أَنَّ الْاسْمَ الْمَوْصُولَ (مَا) الْوَارِدُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : {هَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} يُشَيرُ إِلَى كُلِّ مَا فِي النَّفْسِ؛ أَيِّ: تَرْكِيَتِهَا بِالْعِبَادَاتِ الشَّعَائِرِيَّةِ وَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى حَدٍ سَوَاءِ، الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْوَاقِعَ أَفْضَلَ، فَالْتَّغْيِيرُ الْإِيجَابِيُّ الْمَطَالِبُونَ بِهِ يَشْمَلُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ كُلِّ مَا لَهُ عَلَاقَةٌ فِي جَعْلِ أَنفُسَنَا شَرَكَاءَ فَاعِلِينَ فِي تَغْيِيرِ الْوَاقِعِ وَجَعْلِهِ، أَفْضَلُ بِكُلِّ مَا يَقْتَضِيهِ هَذَا التَّغْيِيرِ مِنْ جَهَّهِ الْحَقِّ، وَدَفْعَهُ لِلظُّلْمِ، وَأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِقْبَالٍ عَلَى الْعَمَلِ، وَإِخْلَاصٍ فِيهِ، وَإِتْقَانٍ لَهُ، وَلَيْسَ التَّرْكِيزُ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ الشَّعَائِرِيَّةِ مِنْ صَلَةٍ وَصِيَامٍ، وَتَلَوُّهُ قُرْآنًا وَحَجَّ فَحْسِبُ فِي انتِظَارِ أَنْ يَتَحَقَّقَ لِلْعَابِدِ مَجَتِّمٌ تَسُودُ فِيهِ الْعَدْلَةُ وَيَعْلُو فِيهِ الْحَقُّ.

بِمَعْنَى آخَرَ: الْوَاقِعُ الْأَفْضَلُ الَّذِي وَعَدَنَا اللَّهُ - تَعَالَى - بِهِ لَيْسَ مِنْهُ إِلَهٌ أَوْ مَكَافَأَةٌ يُقْدِمُهَا لَنَا جَزَاءً لِجَهَادِنَا بِالْعِبَادَاتِ الشَّعَائِرِيَّةِ؟ الْوَاقِعُ الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ سَيَكُونُ لَا مَحَالَةَ إِذْنَمَا نَفْهُمْ أَنَّ مَسْؤُلِيَّةَ التَّغْيِيرِ الْمَطَالِبُونَ بِهَا هِيَ الْإِسْهَامُ فِي جَعْلِ الْوَاقِعِ أَفْضَلَ بِأَنْ نَقْوَمَ نَحْنُ بِصُنْعِهِ بِكُلِّ مَا يَقْتَضِيهِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَخْلَاقٍ وَأَفْعَالٍ وَسُلُوكِيَّاتٍ؟

وَقَبْلَ أَنْ أَنْتَرِنَا إِلَى الْأَمْرِ الثَّانِي أُشِيرُ إِلَى أَنَّ التَّغْيِيرَ عَلَى نِطَاقِ الْعِبَادَاتِ مُهْ جَدًا، بَلْ هُوَ الَّذِي يَضْمُنُ لِلْوَاقِعِ الْأَفْضَلَ، وَلِلْحَضَارَةِ الْمَنْشُودَةِ اسْتِمْرَارَهَا، وَيَمْنَحُهَا الرُّوحَ، وَلَكِنَّهُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي مَا لَمْ يَكُنْ رَدِيفًا لِقِيَامِ الْمُسْلِمِ بِكُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُغَيِّرَ الْوَاقِعَ، وَيَجْعَلُهُ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِ وَسُلُوكِ أَخْلَاقِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَمْ يَقُلْ: (هَتَّىٰ يُغَيِّرُ كُلُّ وَاحِدٍ مَا بِنَفْسِهِ)، بَلْ قَالَ {هَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}، وَفِي ذَلِكَ تَأكِيدٌ بِلِيغٌ مِنْهُ - سَبَحَانَهُ - عَلَى أَنَّ عَمَلَيَّةَ التَّغْيِيرِ إِنَّمَا هِيَ عَمَلَيَّةٌ جَمَاعِيَّةٌ يَنْضُوِي تَحْتَهَا تَغْيِيرُ كُلِّ فَرِيدٍ لِنَفْسِهِ؛ بِاعتِبارِهِ أَمْرًا بِدَهْيًا وَتَغْيِيرَ مِنْ حَوْلِهِ بِمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ أَفْرَادِ الْمَجَمُوعِ مُؤَهَّلِينَ لِصَنَاعَةِ الْوَاقِعِ الْأَفْضَلِ، فَتَغْيِيرُ الْحَالِ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِهِ هُوَ (الْقَوْمُ) (لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) وَلَا (لِلْفَرْدِ)، وَهَذَا مُرْتَبَطٌ بِتَغْيِيرِ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ (أَنفُسِهِمْ)، وَإِصْلَاحٌ (أَنفُسِهِمْ) عَلَى نَحْوِ جَمَاعِيٍّ؛ أَيِّ: عَلَى نَحْوِ حِمْلِ فِيهِ أَفْرَادُ الْقَوْمِ مَسْؤُلِيَّةُ الْإِصْلَاحِ وَالْتَّغْيِيرِ، نَحْوِ الْأَفْضَلِ لِذُوَاتِهِمْ وَلِمَنْ حَوْلَهُمْ عَلَى حَدٍ سَوَاءِ.

2- أَمَّا الْعَالِمُ الثَّانِي الَّذِي سَاعَدَ عَلَى اسْتِسْلَامِنَا لِوَاقِعِنَا وَرُضُوخَنَا لِسَلْبِيَّتِنَا، فَيَتَجَلُّ فِي جُمْلٍ وَأَقْوَالٍ وَعِبَارَاتٍ ارْتَبَطَتْ بِاللَّاْوِعِيِّ الْعَرَبِيِّ عَبْرِ تَنَاقُلِهَا مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ، حَتَّىٰ صَارَتْ عَنَّ الْكَثِيرِيْنَ قَاعِدَةً أَصْوَلِيَّةً تَنْضِبَطُ وَفَقَهَا أَفْعَالُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ وَسُلُوكُهُمْ، بَلْ أَخْدَنَا يُرَدِّدُونَهَا وَيَعْلَمُونَهَا لِأَبْنَائِهِمْ عَلَى أَنَّهَا خُلُصَةُ تَجَارِبٍ، وَحِكْمَةُ حَيَاةٍ.

هَذِهِ الْجُمْلُ وَالْعِبَارَاتُ تَتَمَثَّلُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْأَمْتَالِ الشَّعَبِيَّةِ الَّتِي تَشْيِعُ عَلَى الْأَلْسُنَةِ، وَيُرَدِّدُهَا الْأَبْنَاءُ عَلَى الْأَلْسُنَةِ الْأَبَاءِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ دُونَ تَوْقُفٍ لِإِدْرَاكِ مَدَى اِبْتِعَادِهَا عَنْ رُوحِ الشَّرِيعَةِ وَمَقَاصِدِهَا، بَلْ وَمُخَالَفَتِهَا لِلْمَهْمَةِ الْكَبِيرِيِّ الَّتِي خَلَقَنَا مِنْ أَجْلِهَا. فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ تُطَالَعُنَا بِشَكِّ يَوْمِيٍّ، رَبِّما عَلَى الْأَلْسُنَتِ تَارَةً، وَعَلَى الْأَلْسُنَةِ مَنْ حَوْلَنَا تَارَةً أُخْرَى الْعِبَارَاتِ التَّالِيَّةِ: (بَدِي سَلْتِي بِلَا عَنْبَ)، (فَخَارِ يَكْسِرُ بَعْضُو)، (إِلَيْ بَيْتُجُوزُ أَمِي بَقْلُو عَمِي)، (حَطِ رَاسِكَ بَيْنِ الرُّوسِ وَقُولَ يَا قَطَاعِينِ الرُّوسِ)، (طَنْشِ تَعَشُّ) وَغَيْرُهَا...

إِذْ تَأْتِي هَذِهِ الْأَمْتَالُ وَالْعِبَارَاتُ لِتَعْزِزَ مِبَدَأَ السَّلْبِيَّةِ، وَتَسُوَّغُ لِلْفَرْدِ الْلَّامِبَالَّةِ وَالْتَّوْغُلُ فِي عَدَمِ الْاِكْتِرَاثِ بِمَا يُحِيطُ بِهِ، بَلْ لِتَجْعَلَهُ كَائِنًا مَنْعِلًا مَنْفَصِلًا تَمَامًا عَنْ رَكْبِ الْحَيَاةِ وَتَيَارِهَا، نَاهِيَكَ عَنْ قِيَادَةِ هَذَا الرَّكْبِ، وَإِقْامَةِ خَلَافَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي كُلِّ مَكَانٍ يَكُونُ فِيهِ، دُونَ الْوَقْوفِ عَلَى حَقِيقَةِ هَامَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْتَالَ تَتَنَاقَضُ مَعَ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَبَادَئِ وَالْفَقِيمِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى - : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عَمَرَانَ: ٢٣]

110)، قوله - تعالى - للرجال والنساء على حد سواء: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَاءُ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبه: 71].

فالمسلم كائن فاعل في كل موقف، وفي كل موقع يكون فيه لا يخل عن دوره الإيجابي، ولا يغفل النظر عن أهمية التأثير والسعى في إحقاق الحق ورد الباطل ومحاربة الفساد ورفض الاستبداد قبل أن يستشرى وتمتد جذوره ويصبح من غير الممكن اقتلاعه إلا بعمل جراحي يستهلك رئما الأنفس، وتسلل من أجله الدماء كما حدث في هذا المد من الغضب العربي الذي نراه اليوم في بعض شعوبنا العربية.

ال المسلم واع يدرك دوره وأهمية الكلمة التي يقولها لا يتراجع عن هذا الدور وهو يردد (الى بيتجاوز أمي بقلو عمي)، بل يعمال بموجب قوله - صلى الله عليه وسلم - : ((الذين النصيحة.....))[1]، إنها النصيحة التي على كل منا ألا يدخل بها وأن يخوض غمار الطريق من أجلها، النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم على حد سواء دون أن يخاف في الله لومة لائم، ودون أن يردد عنها الراحة (التطنيش)، أو ابتلاء النجاة بالسلة، ولو كانت فارغة بلا عنب وهو يردد (بدي سلتي بلا عنب)؛ لأن تراجع المؤمن عن دوره الفاعل سوف يجعله إن تخلى اليوم عن العنبر سوف يفقد مع الأيام حتى السلة نفسها، وربما بعد حين سيصبح عال على المجتمع، وقد قدم لنا القرآن الكريم مثالاً بليغاً في نموذجين من الناس أحدهما يدرك دوره الحقيقي في الحياة والآخر، يبتغي الراحة ويجنح للسلبية والقعود يقول - تعالى - في سورة النحل: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتُوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل: 76].

نعم، اللامبالاة وعدم الاتكراط بدور كل منا في إقامة خلافة الله - تعالى - يجعل المرأة كالأبكم الذي لا يقدر على شيء، وهو عال على الركب الحضاري لا يتنق في الحياة إلا الاستسلام والإذعان.

الMuslim يدرك دوره تجاه أخيه المسلم، ولا يركن إلى السلبية واللامبالاة، وهو يردد (إذا شفت الأعمى طبو مالك أكرم من ربو)، بل يدرك دوره تجاه أخيه المسلم متمثلاً قوله - صلى الله عليه وسلم - : ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيمة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيمة)); متفق عليه.

الMuslim إيجابي أينما حل وأينما ارتحل، يتمثل كل معاني الإيجابية التي أتى بها القرآن الكريم، فلا يقف بين أخويه المتنازعين يتفرج، وهو يردد (فخار يكسر بعضو)؛ لأنَّه أدرك معنى قول الله - تعالى - : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ} [الحجرات: 10].

نعم، الإصلاح أحد المهام الإيجابية التي كلف بها المسلم مع ما تتطلبه هذه المهمة من مشاق وصعوبات. المسلم لا يُساير واقعه أياً كان وهو يردد: (بحط راسي بين الروس وبقول يا قطاعين الروس،) (بحسب السوق بنسوق)؛ لأنَّه يدرك أنَّه إن فعل ذلك، فإنه سيكون إمَّة الذي نهى عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما قال: ((لا تكونوا إمَّة؛ تقولون: إنَّ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَا، وإنَّ أَسَأَوْا أَسَأْنَا، ولكن وطِنُوا أنفسكم إنْ أَحْسَنُوا أَنْ تُحْسِنُوا، وإنْ أَسَأُوا أَلَا تَظْلِمُوا))؛ رواه الترمذى، وهو ضعيف مرفوعاً.

الMuslim لا يقف أمام الظالم ليواجهه بالخضوع والاستكانة وهو يردد: (الإيد الي ما بتقدر عليها بوسها وادعى عليها بالكس)، حتى إذا اعترض على سلبيته أحدهم قال له: (أنا بمشي الحيط الحيط وبقول يا ربى الستر)؛ لأنَّه يعلم أنَّ الله - تعالى - يأمرنا بمحاربة الظلم والأخذ على يد الظالم، بل يأمرنا بأكثر من هذا بعدم الرُّكون إلى الظالمين؛ يقول - تعالى - : {وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَاءِ ثُمَّ لَا تُنَصِّرُونَ} [هود: 113].

والMuslim لا يلتمس لنفسه النجاة والخلاص، ولو على حساب غيره وهو يردد: (أنا ومن بعدي الطوفان) (ألف عين تبكي ولا

عيوني تبكي); لأنَّه يُدرك معنى قوله - عليه الصلاة والسلام - : ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاوُفُهُمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا أَشْتَكَى مِنْهُ عَضُُوٌ تَدَاعَى لِهِ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى)); رواه البخاري ومسلم، قوله - عليه الصلاة والسلام - : ((الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)); رواه البخاري ومسلم، كما يُدرك معنى قوله - تعالى - : {وَمَنْ يُوقَ شُحًّا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

لذا كان لِزاماً على شعبنا العربيَّة الثائرة أن تثور مَرَّةً أخرى بعد ثوراتها، ثورةً تقف فيها لتداركَ قِيمًا فقدتها، ومعانٍ خسرتها، ثورةً تكون صمام أمان يحميها من التردي مَرَّةً أخرى في واقع يسودُهُ الظلم والفساد والاستبداد، ثورةً تُسطّر فيها تاريخها بأبجديةٍ جديدةٍ تُقدِّمها للبشرية، أبجدية لا تتمحى مهما تكاثفت حروف الباطل مشكلاً سدواً من الكُتب والأفكار تارةً باسم الدين، وتارةً باسم الوطنية، وتارةً باسم الحِكمة الاجتماعيَّة.

أبجدية تعلو فيها عين الحق على حاجب الباطل، وتنكسر أمامها حيطان اتخذها المحبطون ملجاً من مشقةِ الجهاد، فتسنروا في ظلِّها عقوداً، وهم يدعون السترة، أبجدية ترمي بكل سلَّة لا عنْب فيها، وتجعل من الفخار طوبًا ليبني لا ليكسر بعضه، أبجدية تعلم البشرية أنَّ اليد الفاسدة التي لا نَقْدِرُ عليها إما أنْ نَكْسِرها أو نَقْطِعها، وأنَّ تقبيلها حرامٌ كحرمة الفواحش كلَّها، أبجدية لا وجود فيها لباطل يعلو ولا لمنافقٍ يستطيل.

أبجدية جديدة تُسطّرها هذه الشعوبُ بحروفٍ مِنْ نور تتناقلها الأجيالُ جيلاً بعدَ جيلٍ عساها تكون قد أرستْ قواعدَ متينةٍ تبني في اللاوعي حُصوناً منيعة، أصولها ثابتةٌ وفروعها في السماء، تُؤْتَى أُكُلُّها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها.

[1] عن أبي رُقِيَّةَ تَمِيمَ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ - عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: ((الَّذِينُ النَّصِيحَةَ)), قَلَّا: لِمَنْ؟ قَالَ: ((لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)); رواه مسلم.

المصادر: